

حجِّيَّةُ السُّنَّةِ مِنَ الذِّكْرِ الحَكِيمِ (٢)

لأحكام الإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا مصادرُ تُستَمدُّ منها، أَجمعَ المُسلمون في القرونِ الأُولَى على أنّ القرآنَ والسّنة النبويّة هما الأصلان المستمدُّ منهما أحكام الإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، ثُمَّ نَبَتَتْ في النّاس نابتةٌ زَعمَت أنّ المستمدَّ منه إنّما هو القرآنُ وحدَه، وليْست السُّنّةُ بحجّة في هذا، وكان إثباتُ حجيّة السّنة النّبوية مصدرًا من مصادر التّشريع مجالًا لدراسات علمية عميقة متّسعة، ولمَّا تجدَّد في زماننا التّصايُحُ بأنّ السنَّة النّبويّة ليستْ مصدرًا من مصادر التّشريع آثرتُ أن أُثبت حجيّة السنة النبويّة من الذكر الحكيم نفسه؛ ليتبيّنَ أنَّ مَن أنكر حجيتها، فإنّما أنكر حجّيةَ القرآنِ نفسه، وكذّبَ بما جاءَ فيه.


أ.د. محمود تَوفيق سَعْد(*)

أهلُ العلم على أنَّ إبانةَ الإنسانِ عمَّا هُو مكنونٌ فِي فؤادِه إنّما يكونُ بواحِدةٍ مِن خَمسِ وسائلَ.

يقُول أبو عثمان: عمرو بنُ بحرٍ الجاحظ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- (١٥٠-٢٥٥هـ) في كتابِه العمدةِ (البيان والتّبيين)(١): «وجميعُ أصنافِ الدّلالاتِ على المعاني مِن لفظٍ وغيرَ لفظٍ، خمسة أشياء لا تنقُصُ ولا تزيدُ:

أولُها: اللّفظُ، ثُمَّ الإشارةُ، ثُمّ العَقدُ، ثُمّ الخَطُّ، ثُمّ الحالُ الّتِي تسمّى (نُصبَة).

و(النّصبَة) هي: الحالُ الدَّالّةُ، الّتِي تقومُ مقامَ تلْكَ الأصنافِ، ولا تقصُر عن تلْك الدَّلالاتِ، ولكُلِّ واحدٍ مِن هذِه الخمسة صورةٌ بائِنةٌ مِن صورةِ صاحبتِها، وحِليةٌ مُخالفةٌ لحليةِ أختِها».

وأشرَفُ هذِهِ الوسائلِ: اللّفظُ، وهو الَّذي يتفاوتُ النّاسُ في العلمِ بِه، وفي استعمالِه، وكلُّ شيْءٍ كان تفاوتُ النّاسِ فيه أعظمَ كان هُو الأشرفَ.

و(للنّصبةِ) أثرٌ فعيلٌ نبيلٌ في حسنِ تلقّي الإبانةِ باللفظ، ممّا يهدِي إلى أهمية استحضارِ السِّياق المقاميّ للإبانة إفهامًا، فكم من لطيفِ المعاني وطريفِها لا يتبينُ إلّا بحسن استحضار ذلك السياقِ واستثماره.

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(١) ١/ ٨٢.

وبيانُ كلِّ مُبينٍ بلسانِه إنَّما هُو جارٍ علَى مَعهودِ قومِه فِي الإبانةِ عَن معانيهم فهمًا وإفهاما، ليتحقَّق لبيَانِهِ غايتُه من كتابِه، وإلَّا كان بيانُه كتابةً أوْ مُشافهةً على غيرِ معهودِهم بيانــًا عَقيمًا.

وكلُّ مُبينٍ مِن النّاسِ كتابةً أو مشَافهةً في تحقيقِ مرادِه به إنّما يكونُ علَى قدْرِ إحاطتِه بالعلمِ بمعهودِ لسانِ قومِه في الإبانةِ، وعلَى قدْرِ اقتدارِه علَى الالتزامِ بالأُصولِ والضَّوابطِ العَواصِمِ مِن القواصِمِ والمُقتدِرةِ علَى تَحقيقِ مُرادِه مِن بيانِهِ.

وسَعيُ المُبين مِن الـنّاسِ إلـى تحقيقِ الكمالِ فِي هذا باعثُه الرَّئيسُ أمران رئيسان:

الأوّلُ: شكرُ الله -تعالى- علَى نِعمَة تعليمه البيانَ، كما جاءَ في طَليعةِ سُورةِ (الرّحمَن):

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (الرَّحمن: ١- ٤)، والشكرُ العَمَلِيُّ لِهذِه النِّعمة: (نعمة تعليم البيانِ) مِن أركانِهِ إتقانُ العِلمِ بهذِه النّعمَةِ، والعِلمِ بحُسن استعمالها فهمًا وإفهامًا، واستعمالها فيما يُرضِي المنعمَ بها عليه ﷻ.

ومن ثَمَّ كان السَّعيُ إلى إتقانِ العِلمِ بدقائقِ اللّسانِ العربيّ المُبينِ فهمًا وإفهامًا مِن صورِ العبادةِ الَّتي يُتزلَّفُ بها إلَى اللهِ ﷻ، وهذا ما لَم يتحقَّقْ لأيّ لِسانٍ مِن ألْسنةِ البَشرِ. والرَّغبةُ عن ذلِك الإتقانِ هو رغبةٌ عن شكرِ اللهِ ﷻ على هذِه النِّعمةِ الجليلةِ، وغير قليل، ولا سِيما- شبابُ هذه الأمّة لا يُعْنَونَ -اليوم- بتحقِيقِ هذه العِبادةِ على جلالِها ذاتًا وأثرًا، بلْ إن غيرَ قليلٍ من ولاةِ أمرِهم العامّ والخاصّ لا يلتفتون إلى حقّ هذه العبادةِ عليهم في أنفسِهم وفي مَن يتولونَ أمرَهم، وكُلُّ ذلِك كَانَ عَنْهُ مَسْئولًا.

والثاني: إيصـالُ مكنونِ فـؤادِه إلـى مَن يُخاطبُ كتابَةً أو شفاهةً، وتمكينُه في فؤادِهِ في أحسنِ صُورةٍ مِن الَّلفظِ؛ ليتحَقَّق كمالُ التَّواصُلِ بيْن المُبينِ ومَن يُخطابُه، وليتحقق حسنُ شكرِ الله ﷻ على هذه النّعْمةِ شكرًا عمليًّا.

وأهلُ العلمِ باللّسانِ العربيّ يشترطونَ في المتلقِّي العلمَ بأصولِ وضوابطِ التلقّي عَن ذلك المُبينِ بذلِك الِّلسانِ، فـ(بلاغَة السَّامِعِ) عندهم عدِيلُ (بلاغةِ المُتكلّم).

ويغفُل غيرُ قليلٍ مِن طُلابِ العِلمِ عَن عَوامِلِ تحقيقِ بلاغةِ السَّامِعِ، وعَنْ حقِّ المُتكلِّمِ علَى مخاطَبِهِ.

وحقٌّ علينا نحن مَن ابْتلِي بنعمة تربية طلابِ العلم وصناعتهم رجالًا أن نجعلَ (علم بلاغة السّامع) ممَّا يجبُ تدريسُه والتدريبُ عليه، فاكتسابُ مهارةِ (الإصغاء ثُم التفكير ثمّ الحوار) أوجـبُ وأسبـقُ من اكتسابِ مـهـارةِ (الإبانـةِ والإلقاء)، فإنَّ الكلام إفهامًا من الكلام فهمًا.

وهذا يُبيِّن علّةَ سوءِ فَهم بيانِ الوَحي عند مَن يَهرفون بما لا يعرفون، ولو عُلِّمُوا ودُرِّبُوا

علَى مهارةِ (الإصغاءِ وما إليه) لَمَا تساقَطوا فِيما هُم فِيه مِن سُوء الفَهم.

يقُول الإمامُ عبدُ القاهر الجُرجانِيّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- (ت: ٤٧١هـ): «واعْلَمْ أنَّه لا يُصادِفُ القولُ فِي هذَا البابِ موقِعًا مِن السَّامِعِ، ولا يجدُ لديْه قَبولًا حتَّى يكونَ مِن أهل الذَّوقِ والمَعرفةِ، وحتَّى يكونَ ممّن تحدِّثُه نفسُه بأنَّ لِما يُومِئ إلَيْه مِن الحُسنِ واللّطفِ أصْلًا، وحتَّى يختلِفَ الحالُ عليه عندَ تأمُّل الكلام، فيجدَ الأرْيَحية تارةً ويعرَى منها أخرَى، - وحتَّى إذا عجَّبْتَه عجِبَ، وإذا نبَّهتَه لموضعِ المَزِيَّةِ انْتَبَهَ، فأمّا مَن كانتِ الحالانِ والوجهان عندَه أبَدًا علَى سواءٍ، وكان لا يفقد مِن أَمْرِ (النّظم) إلَّا الصِّحَّةَ المُطلَقَةَ وإلّا إعرابًا ظاهرًا، فما أقل ما يُجدِي الكلامُ معه. فليكنْ مَنْ هذه صفتُه عندَك بمنزلةِ مَن عدِمِ الإحساسَ بوزنِ الشّعرِ والذّوقَ الّذِي يُقيمُه به والطبَعَ الّذِي يُميِّزُ صَحِيحَه مِن مَكْسُورِه ومزاحفَه مِن سالمِهِ وما خَرجَ مِن البحرِ ممّا لم يخرجْ مِنهُ في أنّك لا تَتصدَّى لَه ولا تتكلَّفُ تعريفَه؛ لِعلمِك أنّه قد عَدِمَ الأداةَ الّتِي مَعها يَعرِفُ، والحاسَّةَ الَّتي بها يَجدُ، فلْيَكُن قَدْحُك في زَنْدٍ وارٍ، والحَكُّ في عُودٍ أنْتَ تطمَعُ مِنه فِي نار»[٢].

ويقولُ أبُو يعقوب السّكّاكي -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- (ت: ٦٢٦هـ) في (مِفتاح العلوم):

«هذا التّركيبُ مَتَى وقَع موقِعَه رفَع شأنَ الكلامِ فِي بابِ (البلاغةِ) إلى حيْثُ يناطِحُ السّماكَ.

وموقعُه أن يصِلَ مِن بليغ عالِمٍ بجهاتِ البّلاغةِ بصيرٍ بمُقتضِياتِ الأحوالِ، ساحرٍ فِي اقتضابِ الكلامِ، ماهرٍ فِي أفانينِ السِّحرِ إلَى بليغٍ مثلِه مُطَّلِعٍ مِن كلِّ تركيبٍ علَى حاقِّ معناه وفصوصِ مُستَتْبعاتِه، فإنَّ جوهَرَ الكلامِ البَليغ مَثَلُه مَثَلُ الدُّرَّةِ الثَّمِينَةِ لا تُرَى دَرجتُها تَعلُو، ولا قِيمتُها تغلُو، ولا تُشتَرَى بثمنِها، ولا تُجرَى فِي مُساوَمَتِها علَى سَنَنِها ما لَم يَكُن المُسْتَخرِجِ لَها بَصيرًا بشأنِها، والرَّاغبُ فيها خَبيرًا بمكانِها، وثَمَنُ الكلامِ أنْ يُوفَّى مِن أبْلَغِ الإصغاءِ وأحسنِ الاستماعِ حَقَّهُ ،وأن يتَلَقَّى مِن القَبولِ له والاهتزازِ بأكْملِ ما استحَقَّه، ولا يَقعُ ذلِك مَا لَمْ يَكُن السَّامِعُ عالِمًا بِجهاتِ حُسْنِ الكَلامِ، ومُعْتقِدًا بأنَّ المُتكلّمَ تَعمَّدَها فِي تركيبِه للكلامِ عَنْ عِلْمٍ مِنْهُ، فإنَّ السَّامِعَ إذا جهلَها لَمْ يُميِّز بيْنَه وبَيْنَ مَا دُونَه، ورُبَّما أنْكرَه، وكذَلِك إذا أساءَ بِالمُتكلِمِ اعتقاده رُبَّما نَسبَه فِي تَركِيبه ذاكَ علَى الخطأِ، وأنْزلَ كلامَه مَنزلَةَ مَا يَليقُ بِه مِن الدَّرَجَةِ النَّازِلَةِ»[٣].

(٢) دلائل الإعجاز، تأليف عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمّد شاكر، الناشر مكتبة الخانجي، مصر، ص٢٩١، (فقرة: ٣٤٤).

(٣) مفتاح العلوم، تأليف: أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي (ت: ٦٢٦هـ)، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة، ص: ١٠٨، ١٠٩.

وانظر معه: «شرح مفتاح العلوم» لسعد الدين التفتازاني. (٧٢٢-٧٩٢هـ) تحقيق: عجاج عودة برغش، نشر دار التقوى، دمشق، (ط١) ١٤٤٣هـ، ج٢، ص: ٢٠-٢٢.

طليعةُ الاستدلالِ بالقرآنِ على حِجِّيةِ السُّنّةِ النّبويّة:

فِي القرآنِ الكَريمِ آياتٌ عدّة تقرِّرُ بصريحِ منطوقِها أنَّ طاعةَ سيّدنا الرّسول ﷺ والأخذَ بسُنتِه مستمدٌ لأحكامِ الإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، فإذا أضفنا إلى ذلك الآياتِ المُوجبة الإيمانَ به ﷺ رسولًا مِن عند الله ﷻ والآيات المُوجبة اتخاذَه أسوةً حسنةً والآياتِ المُوجبةِ عليْه تِبيانَ ما فِي القرآنِ الكريم كانت الآياتُ الدّالَّة على حِجِّيةِ سُنّتِه قولًا وفِعلًا وإقرارًا جدَّ وافرةٍ؛ لأنّه لا مَعنى للإيمانِ به رسُولًا واتخاذِه أسوَةً حَسنةً إلّا طاعتُه فيما يأمرُ به ويَنهَى عنه، فيما يتعلَّقُ بعقيدةِ الإسلام وشريعتِه وأخلاقِه.

وتصريفُ القرآنِ البيانَ عَنْ هذه الحقيقةِ في مواضِع عِدّةٍ مِنْه آيةٌ فتيّةٌ على الدّلالَةِ على أنّها ركنٌ مكينٌ مِن أركانِ الإسلامِ، وعلَى أنَّ التَّغافلَ عَن دَلالةِ تعدّد التّصريفِ البَيانيّ عنْها تغافلٌ مُفْضٍ إلى عاقبةِ السّوأَى حقٌّ مُبينٌ مَكينٌ على مَن يقُومُ للتلقّي عن الله ﷻ أن يكونَ بصيرًا بما تعدّد تصريفُ البيانِ عَنه، وما تعدَّد ذكرُه غيرَ مُصرَّفٍ بيانُه، وما كان فَريدًا لَم يَرِدْ إلّا مرَّة، وأن يكونَ بَصيرًا بمواقعِ وُرودِه، وكَيفيّة ورودِه، وسِباقِه ولحاقِه، وبصيرًا بما كانَ فِي أكثرِ ورودِه جليًّا مكشُوفًا، ومَا جاءَ فِي أكثرِ ورودِه خَفيًّا لَطيفًا، ومَا هُو لِلعامّةِ مِن الأُمَّةِ، ومَا هُو للخاصَّةِ الّذين تصَاعدُوا في مَقاماتٍ عَليّةٍ مِنْ مقاماتِ القُربِ الأقدسِ، يحومون حولَ حِمَى «الصّديقيّة»، فكلُّ ذلك روافدُ من روافدِ الإبانةِ القرآنيّة.

وقولُه ﷻ عن القرآنِ الكريم: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ (الشُّعراء: ١٩٢- ١٩٥) هادٍ إلى خواصِّ البيانِ القرآنيِّ نَوعًا ووظيفَةً.

كلمةُ «لِسان» لا تنحصِرُ في دلالتِها على المُفردَة ومعناها الوَضعيّ والمَعنَى السِّياقيّ الاستعماليّ فحسْبُ، ولا تَعنِي الخَصائصَ النّظمِيّةَ والدّلاليّة فحسْبُ، إنّما هِي تجمعُ إلى ذلِك النَّهْجَ الأدائِيَ للمفردةِ والجملةِ وما فَوقَها، ذلك أنَّ الأداءَ وسيلةٌ مِن وسائلِ الإبانَةِ، بلْ إنَّ الأداءَ قَد يقلبُ المعنَى إلَى ضِدّه.

وقولُه: ﴿عَرَبِيّٖ﴾ نَعتٌ كاشِفٌ عن التزامِه بمَعهُودِ العَربِ زمَنَ المَبعثِ ومَا قَبْلَهُ فِي الإبانةِ عَن مَعانِيهم فَهْمًا وإِفهَامًا، وكأنَّهُ شَرْطُ صِحَّةٍ مِن شُروطِ التَّلقِّي للبيانِ القُرآنيّ، فهُو يُوجِبُ أن يكونَ المُتلقّي المُسْتبصِرُ مكنوزَ معانِي الهُدَى الإحسانيّةِ فِي آياتِ القُرآنِ الكريمِ، عليمًا فَهيمًا مُستَحضِرًا مَعهودَ العَربِ فَهمًا وإفهامًا قَبْلَ المَبعثِ وزَمَنه فِي الإبانةِ عَن مَعانِيهم جَليلِها ودقيقِها جَليّها وخَفيّها، فالقرآنُ العليّ الحكيمُ لَم يخرجْ عَن ذلِك المَعهودِ، كَيْما يقَعَ التّواصلُ الحميدُ بيْن القرآنِ ومَن يَتلقّاهُ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ نعتٌ آخر لِلّسان، وإيرادُه على سَبيل التَّعدِيدِ لا علَى سبيل العطفِ آيةٌ علَى أنَّ النَّعْتيْنِ مُتعادِلَان فِي تَمَكُنِهما مِنْهُ، وفِي تَمكُّنِهِ مِنْهُما، فكَما أنَّه لا سَبيلَ لأحَدٍ بتّةً أنْ يَتوقَّفَ فِي أنه عَربيّ، فإنّه لا سبيلَ له -أيضًا- فِي أن يتوقّفَ فِي أنه مُبِينٌ، وأنَّ كلًا مُكَمّلٌ الآخر، وأنّ الثّاني مَبْنِيٌّ علَى الأوّل، فمن روافِدِ أنّه «مُبينٌ» أنّهُ «عَربيّ»؛ وغيرُ خفيّ الفرقُ بين إيرادِ النّعوتِ على سَبيل «التّعدّدِ»، وَإجرائها علَى سبيل «العطفِ: فرقٌ دَلالِيٌّ بيْنَ قولِك» «مُحمّدٌ كريمٌ شُجاعٌ» وقولِك «مُحمّدٌ كريمٌ وشجاعٌ»:

فِي الأوّلِ إيماءٌ إلَى أنَّ النّعتَيْن مُتعادِلان فيه، ليْسَ أحدُهما بأَعْظمَ مِن الآخرِ في تمكُّنِهِ فِي المَوصُوفِ، وتمكُّنِ المَوصُوفِ فِيه، بَيْنا إيرادُهُما عَطفًا بـ«الواو» خاصّة آيةٌ علَى كَمالِ كلٍّ فِي نفسِه، وأنّ المَوصوفَ كامِلٌ فِي الاتصافِ بهِما، وأنَّ كلَّ صِفةٍ كامِلةٌ فِي المَوصُوفِ، وعليْك أن تلحظَ أنّ في « التّعدّد» تمكنًا، وأنَّ في العطفِ بـ«الواوِ» كمالًا.

ولهذا كان قوله تعالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ دالًا علَى أنَّ النّعتَينِ مُتعادِلانِ في تمكّنِهما وأنّ الإبانَةَ مبنيةٌ علَى أنّه «عَربيّ» وفي هذا إيماءٌ إلى أنّه لَيْسَ في لِسان البَشرِ غير اللِّسانِ العربيّ مَا يَصْلُحُ أن يَحمِلَ مَعاني الهُدَى الإحْسانِيَّةَ المُتكاثِرَة بحسْنِ التّبصّرِ، والتّدبُّر فِي الفُؤادِ الرَّشيدِ، وقَولُه: ﴿عَرَبِيٍّ﴾ إيماءٌ إلى أصلِه، وقولُه: ﴿مُّبِينٍ﴾ إيماءٌ إلى وظيفتِه، ولذَا لَمْ يَقُلْ: (عَربيّ بيّنٌ)، بَلْ هُو (عَربيّ مُبينٌ) وهذا مُتضمّنٌ نَعتَهُ بأنّه «بيّن» في نفسِه، فإنّه لا يَكونُ مُبينًا إلّا إذا كان بيّنًا، فهو بَيِّنٌ فِي نفسِه مُبِينٌ غيرَه، ولـمْ يصرِّح بذكرِ معمولِ اسم الفَاعل: «مُبين» إيماءً إلَى أنّ إبانتَه مُحيطةٌ بكلّ ما يُرادُ أنْ يكونَ مُبينًا له، فليْس شَيْءٌ أُريدَ مِنْهُ أن يُبيِّنَه إلّا وَقَد أبانَه، فإنْ عُمِّيَ شَيْءٌ مِنه علَى أحَدٍ، فإنَّ ذلك مِن قِبَلِ السّامِعِ أوْ القَارِئِ، لا مِن قِبَلِ الذِّكرِ الحَكيم.

والإبانةُ لا تعنِي السُّفورَ، فالظُّهور لازمُ معنَى البَيان ،وليس هُو المَعنَى الوضعي لمادة «البَيان».

أصلُ البيان أنَّه مُفصّلٌ غيرُ معجونٍ بعضُه ببعْضٍ، وقد يكونُ بعضُ هذا المفصَّل خفِيًّا يستدلّ عليه بما هُو ظاهرٌ، فليْس كلّ مكوِّناتِ البيان مِن المعاني ظاهرًا، وإلّا كان كلُّ بيانٍ لا يَحتاجُ إلَى تبصُّرٍ وتَدبّر، فالدّعوة إلَى تدبّر القرآنِ الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص: ٢٩)، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (محمد: ٢٤) -آيةٌ صريحةُ الدّلالةِ علَى أنّ فيهِ مِن المعانِي ما لا يَتبيّنُ لَك بغيرِ تدبّرٍ لِلطفِه وطرافتِه، فكُلّما زِدتَه تَدبُرًا زادَك عطاءً مِن تلْك المعانِي المُتجدّدة المُجَدِّدَةِ إيمانَك واقتدارَك علَى أن تُبصِرَ ما هُو أشدُّ لُطفًا منها،

وهكذا تجدُ نَفسَك فِي تَتابُعٍ لا ينقطِعُ، فلا تكادُ تصلُ إلى منتهَى المَعنى، فمِن وجُوه إعجاز البيانِ القرآنيّ أنّه لا يُمكِن للعالمين أن يُحيطوا بما هُو مكنوزٌ فِي آيةٍ واحدَةٍ مِن آياتِه إحاطَةً لا تُبقِي فيها شيْئًا، فكيفَ بِمعانِي نُجومِه وسوره؟! ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزُّخرُف: ٤)[٤].

وهذا يَهدِيك إلى أنّ الآياتِ الدّالّةَ علَى حجيّةِ «السّنّةِ النّبويّة» منْها ما كانت دَلالتُه على ذلك ظاهرةً تدركُ بإصغاءِ مَن كان عليمًا فهيما لمعهودِ اللّسانِ العربيّ زمنَ البعثةِ وما قبلَها فَهمًا وإفهامًا، وفِيها ما يؤزِرُها وتزيدُ عليْها على وجهٍ مِن الدّلالةِ علَى حجيّةِ «السّنّةِ النّبويّة» بسبيلٍ فيهِ لُطفٌ وإحسانٌ لا يذوقه إلّا مَن كان ذا قدمٍ في حُسنِ التّبصّر المتدبِّر، وكلّما كان سبيلُ الدّلالةِ علَى المَعنَى لَطيفًا كانَ المَدلولُ عليْه بهذا السَّبيلِ أوفرَ عطاءً وأكثرَ إحسانًا.

ومن خَصائصِ البيانِ القرآنيّ أنّه يُوردُ البيانَ عَن المعنَى إيرادَيْن: إيرادَ تصريح فِي موضعٍ، وإيرادَ تلميحٍ في آخر، ولكلٍّ أهلٌ يَطْعَمُونَه.

وما وَرَدَ تلْميحًا يُفهمُ فِي ضوءِ ما وَرَدَ تَصْريحًا، ومَا وَرَدَ تَصريحًا نماؤُه فِي الفؤادِ الرَّشيدِ وتكاثُره بتدبُّرِ ما ورَد تلميحًا، فالمُسْتبصِرُ مُستمِدٌّ رزقَه مِن معانِي الهُدَى الإحسانيّة مِن الضّربيْنِ معًا: ما وَرَدَ تصْريحًا، ومَا ورد تَلميحًا.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (الزُّمَر: ٢٣).

لِذلكَ كان فَريضةَ عيْنٍ علَى كلِّ مَنْ يقُوم مُستبصِرًا البيانَ القُرآنيّ أن يكونَ عليمًا فَهيمًا مستحضِرًا كلَّ ما ذكرتُ؛ كَيْمَا يكونَ علَى بَصيرةٍ بشأنِ ما يَرِدُ علَى فؤادِه وهُو يتدبّرُ آياتِ الذِّكرِ العليّ الحَكيم، فيَتيَقن أنْ كان ما وَرَدَ على فؤادِه إنّما هُو مِن المَعنى القرآني وليْسَ عنْه زَنيمًا.

ومَنطِقُ العقلِ الفِطرِيّ والعِلمِيّ والإيمانِيّ أنّ يكونَ المُقدَّمُ القولَ فيه ما كانَتْ دَلالتُه على حجّيّةِ «السّنّة النّبويّةِ» دَلالَةً بيّنةً جليّةً لا

---

(٤) الضمير في «إنّه» يراد به القرآن وقد أخبر عنه بثلاثة أخبار:

أنّه في أم الكتاب لديه ﷻ، فهو محفوظٌ لا سبيل إلى تحريفه أو نقصه أو الزيادة فيه، فالذي بين يدينا في مصاحفنا هو الذي في أم الكتابِ «اللوح المحفوظ».

والخبر الثَّاني: أنَّ القرآن عليٌّ، لم يقل: «عاليًا» بل قال: «عليٌّ»، فدلَّ على كماله في علوه، فليس ثَم كتابٌ أعلى منه.

والخبر الثالث: «حكيم» أي: محكمٌ في جميعِ أمرِه.

وهذا دليلٌ قطعي الدلالة على أن كل كلمةٍ وجملةٍ وآية، ونجم ومعقد وسورة وحزبٍ موضوع في موضعه في اللوح المحفوظ وضعًا عليًّا حكيمًا، فترتيب كلّ شيءٍ فيه بدءًا من الكلمةِ إلى السورة إلى الحزب ترتيبٌ توقيفيّ لمُقتضَى اقتضاه.

تحتاجُ إلى أكثرَ مِنْ أن يُصغِي إليْها مَنْ كانَ عَليمًا بِمعهودِ لِسانِ العربِ زمَنَ المَبعثِ وما قبلَه في الإبانةِ عَن المعاني فَهمًا وإفهامًا، وهُو فِي القرآنِ جدُّ كثيرٍ قد لا يَتسِعُ المَقامُ للقولِ فيه جميعِه، مِمّا يُعينُ عَلى أن يُستغنَى بالقولِ في بعضِه عن بعضِه.

من تلك الآياتِ العديدةِ ذاتِ الدَّلالةِ الصَريحةِ على حجيّةِ «السُّنَّةِ النّبويّةِ» قَولُ الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ (النساء: ٥٩- ٦١).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ (النساء:٦٤، ٦٥).

هذه الآياتُ مَن أحسَنَ الإصغاءَ إليها تبيَّن له فِي عدّةِ مواضِع منها ما يدلُّ دلالةً صَريحةً على وجوبِ استمداد الأحكام ممّا جاء في القرآن وما جاءَ فِي «السّنةِ النَّبويّةِ» وطاعتهما معًا، ولو كان المرادُ اتباعَ القرآنِ وحدَه ما كان لِذِكر الرّسول ﷺ تصريحًا مقتضى، فقوله ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾.

مِن ذلك تَتبيّن لك دَلالةُ هذه الآيات على وجوبِ طاعةِ الرّسولِ ﷺ مع طاعةِ اللهِ ﷻ، وأنَّ القَرْنَ بيْن الطَّاعَتَين آيةٌ على أنَّ حجيّة «السّنّة النّبويّةِ» كَحجّيةِ القرآن سواءً بسواءٍ، ومن لَم تتجلَّ له تلْك الدّلالةُ فذلك آيةٌ على أنَّه غيرُ مَلِيكٍ لأدواتِ الفَهمِ عن اللسانِ العربيّ الذي نزلَ به الوحيُ.

وقراءةُ الآياتِ فِي سِياقها يزيدُ المتدبِّر فُيوضًا مِن مَعاني الْهُدَى الإحْسَانِية.

(يتبع)